

التكبر أريد أن أصِفَ التَّكْبُرَ وَحِدَاثَةَ النِّعْمَةِ. وَلَيْسَ عِنْدِي وَصْفٌ يُرْضِينِي، هَازِنًا، لَا غَاضِبًا وَيَبْقَى لِي شَيْءٌ أُتَمُّ بِهِ الْكَلَامَ فِي حَدَاثَةِ النِّعْمَةِ. أَشَدُّهَا الْحُمُقُ، ثُمَّ الْاِعْتِرَارُ بِالانتقال من الضَّعْفِ إِلَى الرِّفْعَةِ، ثُمَّ مُحَاوَلَةُ الْعِزَّةِ عِنْدَ النَّاسِ. الْمِتَّكَبِّرُ يَنْظُرُ إِلَى أَعْطَافِهِ، حَتَّى يَسْتَضْحِكَ النَّاطِرَ، لِأَنَّ النَّفْسَ إِذَا خَلَا مِنْهَا مَوْضِعُ الْفَضْلِ، وَبَدَتْ غَرَائِبُهُ. حَتَّى انشَقَّ بِنَطْلُونُهُ، فَكَانَ عَابِسًا مِنْ فَوْقُ، فَهَالَنِي الْأَمْرُ، فَإِذَا عَقُولُهُ بِخَوَاتِمِ رَبِّهَا لَمْ تَمَسَّهَا فَائِدَةٌ، وَإِذَا أَلْسُنُهُ يَتَسَاقَطُ مِنْهَا الْحَدِيثُ كَجَلْمُودٍ لَمْ يَنْزِلْ مِنْ عِلِّ صَخْرٍ (حَطَّ السَّيْلُ). وَإِذَا عَيُونَ مَا أَوْمَضَ فِيهَا بَارِقَ مِنَ الذِّكَاةِ. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «مَا أَشَدَّ عَيْثَ الدَّهْرِ يَرْفَعُ هُوَلاءَ مِنْ مَوَاضِعِهِمْ، لِيَفْضَحَهُمْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ. وَلَوْ تَرَكَهُمْ حَيْثُ وُلِدُوا، إِنَّ لَقَبَ (بَاشَا) فِي هَذَا الْبَلَدِ أَشَدُّ إِسْكَارًا مِنْ زُجَاجَةِ الْوَيْسِكِيِّ ! يَنَالُهُ الْقَرَوِيُّ الَّذِي بَيْنَ الْأَنْعَامِ، ثُمَّ يَنْزِلُ مِصْرًا، أَوْ يَطْلُعُ التَّغْرَ، يَخَالُ رَأْيَهُ أَنْ تِيَابَهُ تَمَشِي وَحَدَاها فَيَطْعَى، ثُمَّ يَطْعَى، وَيَأْتِي طَغْيَانَهُ عَلَى شَكْلِهِ الْمَضْحَكِ، فَهَذَا فَضَحَ نَفْسَهُ وَلَا يَشْعُرُ أَنَّهُ فَضَحَهَا، وَأَغْنِيَاوَهُمْ، اللَّيَالِي. وَلَا تَزَالُ تُقْبَلُهَا. فَيَكَلِّمُ الْمَلِكُ مِنْهُمُ الْجُنْدِي، وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيَقُولُ لَهُ: «بَنِي، وَأَخِي»؟ أَلَا تَرَى سُمُو أَمِيرِ الْبِلَادِ، مَا حَظِّي بِلَثْمِ يَمِينِهِ أَحَدٌ إِلَّا خَرَجَ وَلِسَانُهُ شَاكِرًا، وَقَلْبُهُ مُنْشَرِحٌ؟ وَلَكِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِلَيْكَ، لَقَدْ قَايَسْتُكَ مَعَ غَيْرِ نَظِيرٍ ! وَلَا أَطْمَعُ أَنْ تَسْمُوَ